محمود أمين العالم
(دراسة)

لست أعرف تحديدا ذلك السبب الذى يدفع الفلاسفة - ربما كل الفلاسفة - إلى التباعد عن الانغماس فى غابات الفعل السياسى. ربما لأنهم يهتمون بما هو عام جدا ويرفضون التلامس مع ما هو تفصيلى.. وربما لأن أدوات التعبير عندهم هى إعمال وتحريك أدوات التفكير عند الصفوة، بينما السياسيون يلجأون إلى العامة. وربما لأن ما هو حق فى الحقيقة هو حق دائما عندهم، وفى السياسة يختلف الأمر، فقد يتلاعب السياسيون مستمتعين بهذا التلاعب بالحق والحقيقة معاً.

وقد عرفت مصر عديدا من الفلاسفة المرموقين.. وعرفت سياسيين أكثر من أن يخضعوا للإحصاء، لكن أحدا غير محمود أمين العالم لم يفعلها، فظل مغرقا فى فك طلاسم الفلسفة، مستمتعا بمحاولة المزاوجة بينها وبين ما هو سياسى ويومى وجماهيرى.

ومحمود أمين العالم قطعة من النسيج المصرى التى تشابكت خيوطه وتشبعت بالعطر المصرى العتيق. (والعطر كالنبيذ يزداد حلاوة كلما ازداد قدما).. فأقدامه الصغيرة منذ تعرف على قدرة المشى داست كل أزقة الكحكيين والباطنية والقربية وحيضان الموصلى ودرب المحروق.. مرورا بكل الأسماء الأخرى التى تمجدت بانتمائها إلى كل ما هو أصيل فى المصرية، والترانيم التى التقطتها الأذن وهى بعد طفلة هى تراتيل الأذان من مآذن الحسين والأزهر والمؤيد.. تواشيح المرتلين فى وجد فى الأمسيات المباركة بمناسبات دينية.

إنها المصرية الخالصة التى تفسح للتدين المساحة الأكبر فيفسح بدوره كل المساحات للعقل والتأمل المتعقل.

والتعليم، كعادة أهل هذه الحارات، يبدأ حتميا فى الكتاب، وتحت لسعات عصى الشيخ السعدنى شيخ الكتاب القابع فى مدخل حارة السكرية حفظ كثيرا من القرآن. ثم إلى المدرسة الرضوانية الأولية بالقربية، ومنها إلى النحاسين الابتدائية بالقرب من بيت

القاضى (ويكفى أن نتأمل الأسماء والأماكن لنعرف أى فتى كان، وفى أى مناخ نشأ).

لكن التعليم ترف لا يستحقه إلا أبناء الأغنياء. وهكذا أطاح به الفقر الفقير بعيدا عن المدرسة. فالأب عجز عن سداد المصروفات، وأخذته أمه إلى زوج أختها الحاج منير الدمشقى صاحب المطبعة والمكتبة المنيرية ليتعلم حرفة الطباعة، ونقرأ له: «وفى بضعة أسابيع استطعت أن أتعلم جزءا كبيرا من صندوق الحروف، وتركيب الجمل والعبارات، وربطها بالخيط مع الجمل الأخرى، وأبنى صفحة كاملة من الرصاص، على أنى فى أغلب الوقت كنت أعمل مساعدا للعدد البسيط من العمال الذين كانوا يعملون فى المطبعة.. كإحضار الشاى وشراء السجائر». (١)

ولكن، ثمة شىء غريب يلعب دورا فى تكوين هذا الكون وأناسه، هو "المصادفة".

ونواصل معه: «ولم تطل غيبتى عن المدرسة، إذ سرعان ما جاء خطاب رسمى منها يدعونى إلى العودة معفى من أداء المصروفات، وكان السر وراء ذلك أن الملك فؤاد كان مريضا آنذاك وشفى. فتقرر منح المجانية للمتفوقين فى سنوات الدراسة الابتدائية». (٢)

إنها المصادفة التى منحت مصر والفكر العربى المفكر والمناضل محمود العالم بدلا من الأسطى محمود المطبعجى.

ولعل هذه المصادفة التى صادفته فتحولت حياته كلها نحو الأرحب والأجمل هى التى دعته فيما بعد كى يتفرغ للبحث حول "فلسفة المصادفة".

وما إن أمسك الفتى بخيط التعلم حتى تشبث به.. تفوق، حصل على جائزة وزارة المعارف، ثم حصل له أخوه شوقى على مجانية فى المدرسة الثانوية، وعندما تأرجح به الزمان يحاول أن يحرمه مواصلة دراسته الجامعية باعت أخته عائشة قطعا من الحلى هى كل ما تمتلك كى يتواصل مع الحلم، ثم توظف وواصل دراسته متحديا كل ما غرسه الفقر من معوقات.

ويمضى محمود العالم: «وكان أبى من رجال الدين. وكان من أتباع الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية».. والأخ الشيخ أحمد أزهرى كفيف، كان ينقل كل كتبه الدراسية إلى طريقة "بريل" وكان على الفتى محمود أن يمليه، «ولقد ظللت أملى عليه وأقرأ له منذ أن استطعت القراءة حتى سن المراهقة، خائضا فى مختلف كتب التفسير، والحديث، وأصول الدين، وعلم الكلام واللغة إلى غير ذلك، أفهم بعض المعانى ويغيب عنى

بعضها، ولكنى أعيش عطر ثقافة عريقة لا يزال رحيقها الغامض يغمر نفسى»(٣)

الأخ الآخر شوقى كان أزهريا متمردا، فصل من الأزهر بعد أن ألف كتابا هاجم فيه الأزهر والأزهريين أسماه "الأزهر فوق المشرحة"، وكان شوقى صديقا لكامل كيلانى رائد أدب الأطفال. واتخذ الكيلانى من محمود معيارا يقيس به مدى تفهم الأطفال والناشئة لما يكتب من قصص فظل يقرأ له ومعه ويحضر مجالسه مع كبار الأدباء.. يستمع ويتعلم.

ويستجمع الفتى ذلك كله ليضيف إليه: الشعر، الشطرنج، الموسيقى (أسس وهو طالب بالجامعة جمعية الجرامفون مع د. لويس عوض، هناك التقى مع طالبة فى قسم إنجليزى هى سميرة الكيلانى، وفى عام ١٩٥٢ تزوجا).

وفى الجامعة.. وفى بداية دراسته للفلسفة اصطدم بقطار د.عبد الرحمن بدوى، ثم بتهويمات د. لويس عوض فى اشتراكية غامضة، وتراوح لزمن بينهما: "فى المرحلة الجامعية كنت أتراوح فكريا بين نيتشوية ووجودية عبد الرحمن بدوى، واشتراكية لويس عوض»، لكن الفتى لم يكن منقادا مغمض العينين، بل كان متمردا معملا عقله، "والغريب أننى كنت أرى فى وجودية عبد الرحمن بدوى.. وخاصة بعد أن طبع رسالته عن الزمان – أنها وجودية مغدورة، ذلك أنه صبها فى قوالب ومقولات تجمد – فى رأيى آنذاك – طبيعتها الوجودية.. وكان موقفى متشابها من اشتراكية لويس عوض. كنت أراها اشتراكية ملتبسة وغير علمية".(٤)

وينقذه لبعض الوقت أستاذه د. يوسف مراد بمنهجه التكاملى، فينغمس فى جمعية "علم النفس التكاملى" تلك الجمعية التى جعلت من نفسها جسرا بين مثاليتى وماركسيتى."(٥)

وفى الجامعة عاش الحياة الفكرية بطولها وعرضها.. ناقش، اختلف، شاكس.. حتى طه حسين لم ينج من مشاكساته فى مقالات حادة ومتفجرة كتبها هو وعبد العظيم أنيس (طبعت فيما بعد فى كتاب: فى الثقافة المصرية).. حصل على جائزة الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الفلسفة. نال درجة الماجستير حول "فلسفة المصادفة"، عين مدرسا مساعدا لمادة المنطق، بدأ يعد لرسالة الدكتوراه عن "الضرورة" باعتبارها الوجه الآخر للمصادفة.

لكنه كان قد أصبح برصيده الفكرى، ومشاغباته الحوارية، ونشاطه المتفجر الذى مزج فيه بين الفلسفة والحرية والموقف الوطنى والديمقراطى.. واحدا من نجوم الجامعة.

ويقول: «وفى عصر يوم من أيام صيف ١٩٥٤ استدعيت لمقابلة د. يحيى الخشاب عميد

الكلية. وجدت معه د. لويس عوض، أبلغنا بحزن عميق وتأثر صادق قرار فصلنا من الجامعة. وأتذكر الآن الطريق الذى أخذنا نقطعه بتمهل، لويس عوض وأنا من كلية الآداب حتى ميدان الجيزة، ما تكلمنا كثيرا، لا شك أن حزنا ذاتيا كان يملأ قلبينا. كنت أحس شخصيا بأن حلمى بالمشروع الفلسفى أخذ يتلاشى، وأشعر بتهديد غامض لمستقبل ابنتى الوليدة، ولكنى أتذكر أننا ونحن نفترق قلنا معا شيئا واحدا، واتفقنا عليه بوضوح وحسم: سوف نغيب عن ساحة المعركة. ولكن لا ينبغى أن نغيب أبدا عن هذه الساحة التى نمضى نحوها، ساحة شعبنا، وبلادنا، ساحة مصر كلها، سنواصل فيها الرسالة التى يؤمن بها كل منا».(٦)

* * *

«أنا لا أدرى.. ماذا أفعل
لا أدرى عما أبحث
بل أتحدث، أتحدث
أتسول تأويلا
أنسج بالشعر بديلا». (٧)

ويظل الشعر دوما ملجأه من الحيرة أو عدم القدرة على البوح الصريح.

لكنه لم يكن أبدا عصيا إزاء الحقيقة. تغلفه الحيرة، تلك الحيرة المشروعة دوما فى عالم الفكر. ثم يستقر، فيندفع حتى ولو كان قد استقر باتجاه النقيض.

هكذا كانت مصادفته الغريبة مع موضوعه الأثير، "لم تكن المصادفة موضوعا لبحث منذ البداية بل كان الموضوع شيئا غامضا يقف أمام قواى العارفة كأنه حائط كثيف معتم أستشعر جلاله وإن لم أتبين له فى نفسى دلالة محدد".. "والحق أننى لم أكن كانطيا بل كنت دون كيشوتيا متطرفا، وإن لم أملك درعا من رياضة، أو معرفة علمية. على أنى انطلقت عبر الظلمة وطواحينها العلمية الدائرة بضمير لا أدعى أنه كان يستهدف المعرفة وحدها، فقد كنت مأزوما، أزمة تختلط فيها المفهومات الفكرية والقيم الاجتماعية والخلقية. وكنت أعتقد أن انطلاقت عبر الحائط الكثيف المعتم هى سبيلى للخلاص.. ولكنى كنت منتسبا انتسابا كاملا إلى تيارات فكرية غير علمية، وكان هذا الانتساب الفكرى عقبة منهجية تردنى عن الاستبصار السليم بالبحث الذى أستهدفه. كنت أتحرك بإرادة نيتشه

وأتعرف بحدس برجسون وفطرته الحية، ولا أبصر فى الواقع غير لا معقول مايرسون وهكذا جعلت من البحث، ومن الدلالة رحلة استبطانية، وجعلت من العقل إطارا محدودا قاصرا، ومن الحياة حبلا منصوبا فوق هاوية.. "وأحسست فى سذاجة وغرور لا حد لهما أن هذه مهمتى التاريخية. ومن ثم رحت أعد نفسى للرحلة الطويلة".(٨)

لكن مصادفات ما تقطع "المصادفة" وبحثه عنها وفيها. اكتشافه المنبهر للفكر الماركسى، الأمر الذى دفعه دفعا إلى الانغماس فى غابة السياسة، ثم طرده المتعسف من الجامعة الأمر الذى أبعده ولو قليلا عن كهنوت التفرغ لعلم الفلسفة.

وكان الأمر بسيطا للغاية.

"ولقد بدأت هذا البحث (فى فلسفة المسافة) غارقا حتى أذنى فى الفكر المثالى، هادفا لاتخاذ (المصادفة) معولا لتقويض الموضوعية العلمية، وهذا ما اعترفت به فى بداية البحث، أما ما لم أعترف به فهو أنى خلال البحث، بل فى مرحلة متقدمة منه التقيت بكتاب (المادية والنقد التجريبى) لمؤلفه لينين، الذى قادنى بدوره إلى كتاب (جدل الطبيعة) لإنجلز، وكان هذا حدثا فكريا فى حياتى، قلب تصوراتى الفلسفية رأسا على عقب، فأمسكت بالمعول نفسه، ورحت أقوض به الفكر المثالى الذى كان يستغرقنى تماما، واقتضانى هذا سنوات أخرى أنسج فيها البحث منذ البداية على نول موضوعى جديد.. بل رحت أجدد كذلك حياتى الفكرية. وأبدأ مرحلة جديدة من الحياة".(٩)

وأصبح محمود العالم ماركسيا.. من باب بحثه فى "المصادفة".

انتقل من النقيض إلى النقيض عبر إعمال العقل ومواصلة البحث.

على أنه لم يتخلص أبدا من عشقه لموضوع "المصادفة".

بل قدمها ومن جديد وبفهم جديد، يليق بماركسيته.

"المصادفة واقعة موضوعية، تتميز بأنها قابلة للتغير والتمايز والتشابك، وأنها محصلة لعوامل متداخلة متفاعلة. وموضوعيتها لا تتنافى مع الضرورة الموضوعية. فالضرورة الموضوعية ليست تحديدا ميكانيكيا، أو قابلية للرياضة الإقليدية، وإنما هى بدورها ما يتميز به الواقع المادى من علية عواملية مجالية".(١٠)

بل إنه يتشبث بقيمة المصادفة حتى عندما يخوض مؤخرا – وبعد أن أصبح ماركسيا عريقا – عوالم النقد الأدبى لروايات نجيب محفوظ. «ولأول مرة فيما أعتقد يعترف نجيب

محفوظ بالمصادفة اعترافا جهريا باعتبارها عاملا أساسيا فى بناء مصائر أبطاله، وذلك على لسان كمال عندما يقول فى "قصر الشوق": "المصادفة هى وحدها التى عرفتك بحقيقة ذلك الرجل. والمصادفة هى التى لعبت فى حياتك أخطر الأدوار"، ومن الواضح أن المصادفة التى يقصدها نجيب محفوظ هنا على لسان كمال هى الوقائع الموضوعية التى لا يدخل الفرد فى تدبيرها وتخطيطها ولكنها تدخل فى تشكيل حياته وعلاقاته بالآخرين و.. "المصادفة بهذا المعنى لا تعد خلخلة فى البناء الفنى لرواياته، وإنما هى عنصر من عناصر البناء نفسه سواء من الناحية المعمارية الشكلية أو من الناحية الفكرية».(١١)

هكذا نكشف عالم محمود العالم.

فهو إذ يعمل العقل والفكر ويقرر الانتقال من موقف لآخر، ينتقل محملا بالقديم محاولا إلباسه ثيابا جديدة تتلاءم مع الموقف الجديد. هكذا فعل بفلسفة المصادفة. وهكذا فعل بالتراث إذ تعلق بالجديد.. وهكذا فعل عندما التقى بماركسيته الحازمة مع الفكر الناصرى فى إطار التنظيم الطليعى، أو حتى قبل ذلك.

ولعله يفصح عن ذلك صريحا: "لتكن حياتنا احتفالا دائما بالجديد ونبضا متصلا بالجديد، ولن يعنى هذا أبدا انفصالا عن تراث، أو انقطاعا عن تاريخ، ذلك لأن الجديد هو بحق روح كل تراث، وروح كل تاريخ، بل الجديد هو روح الحياة نفسها، وسر شجرتها الدائمة الاخضرار والنضارة"(١٢)

وهو إذ يقترب من "السياسة" يأتى مغلفا بالتفلسف، بل ومتخذا لنفسه مبررات فلسفية ربما ليبرر لها ما فعل بها.

ونقرأ له: «قديما قال الفليسوف الرومانى: الفضيلة هى فن إسعاد الذات بالعمل على إسعاد الغير. وحديثا تقول الحكمة النابعة من حياة الثوار جميعا: إنك لن تستطيع أن تغير ذاتك، وأن تجددها إلا بالعمل على تغيير الحياة وتجديدها فى مجتمعك وفى عصرك».(١٣) وأيضا.. "الغربة الحقيقية عن النفس هى الالتصاق بالنفس عن الناس. والوجود الحقيقى للنفس هو الرحلة إلى الناس بهم ولهم».. ثم » لم يعد العصر الذهبى للإنسان ماضيا قديما بل أصبح حلما نسعى به إلى التحقيق، أصبح رسالة ومعركة معا».

ولكن كيف يمكن لهذا المتمرد.. الفيلسوف.. الذى فرض على نفسه أن يخضع كل شىء للعقل، المثقف المتعدد المجالات، الناقد الأدبى الذى اعتاد على النقد والانتقاد، أن ينقاد إلى

مواقف وآراء وقرارات صادرة من تنظيم ماركسى صغير – صغير حتى بالنسبة للمنظمات الأخرى التى كانت هى أيضا صغيرة – اسمه "نواة الحزب الشيوعى المصرى"؟

لقد حاول وببساطة – وكما اعتاد دائما – أن يغلف جديده بقديمه، أو قديم بجديده، وأن يصوغ القديم والجديد معا فى جدلية متفاعلة دوما.

فالدعوة التى يدعو إليها "ليست ببساطة إلا دعوة إلى تنمية الثقافة الثورية العربية باعتبارها امتدادا وتطويرا لأشرف ما فى تراثنا القومى العريق، وإلى التعجيل بثورة ثقافية جذرية، تعمق قدرة التحرير والاشتراكية والوحدة القومية، وتعيد بناء الإنسان العربى بناء حضاريا جديدا غير منقطع عن أشرف ما فى تراثه القديم، غير معزول عن حقائق مجتمعه المصرى".

ولعله كان يحاول أن يقمع نفسه إذ يخضعها بكل طموحاتها للالتزام الحزبى والفكرى والمذهبى، إذ يواصل قائلا: "إن القول بالدلالة الموضوعية والاجتماعية للأدب أو للثقافة عامة لا ينفى ذاتيته، ولا يحد من إبداعه، ولا يخنق جمالياته، وإن القول بالالتزام ليس أمراً بالإلزام، أو حجراً على الحرية، وإنما هو استبصار – بإنسانية الثقافة ووعى بأصالتها الثورية".

بل هو يصد نفسه صدا عن أى محاولة للتمرد ويحذرها وبقسوة قائلا: "على أن أدرك أن الصراع حول هذه المفاهيم لن يتوقف أبدا، ذلك أنه يعبر عن صراع أعمق هو الصراع الطبقى الذى تدور أخطر معاركه فى مجال الفكر، فى مجال الأدب، فى مجال الفن، فى مجال الثقافة العامة".(١٥)

أرأيتم كيف حاول أن يروض نفسه، بل وكيف روضها فعلا. فالصراع طبقى.. ومن يقف ضد فكرة الطبقة العاملة يكون (..) بل لعله كان يبرر لنفسه أو يعزيها أو هما معا إذ يقول: "أين مأساة الفنان إذن فى المجتمع الرأسمالى؟ فى الفردية وفى الحرية نفسها. حقا إن المجتمع الرأسمالى يدعو إلى الحرية، ولكنه يمزق الشخصية الإنسانية ويحطم الفردية، بما يفرضه من أنظمة تقوم على التخصيص الضيق، وبما يسود علاقاته من تنافس حاد ولا رحمة فيه، ولا مراعاة لإنسانية الإنسان.. ولم ينج الفنان من هذا المصير نفسه بل أصبح الفنان منتجا لسلعته، وأصبح بدوره يخضع لقوانين المنافسة الرأسمالية، وراح يعانى الإحساس بالغربة.(١٦).

وفى إطار هذا التنظيم الضيق الحدود ومن خلاله بدأ يتطلع إلى الماركسيين الآخرين متحدثا مع نفسه ومع غيره عن ضرورة التوحد معهم. ولعله كرر لنفسه ولرفاقه وأكثر من مرة المثل العربى القائل: «يتصارع الأخوان وهما مثل ركبتى تقفان معا وتقعان معا".

وربما وجد لنفسه هنا أيضا تبريرا ذا طابع فلسفى برغم أن المصلحة السياسية كانت واضحة ولا تحتاج إلى تبرير.. ويقول: "نحن لن نعرف حقيقة الأشياء بطول التصاقنا بها. ولن نعرف حقيقة أنفسنا بطول إغراقنا فيها واستغلاقنا عليها، وسبيلنا الوحيد للرحلة داخل الأشياء وداخل أنفسنا هى الرحلة إلى الخارج.. خارج الأشياء، وخارج أنفسنا، بالنظرة الشاملة والتأمل المقارن، والخبرة المتحركة ثم.. ينفتح وجودك على الآخرين فحسب، بل هى سبيلك الوحيد لمعرفة نفسك".(١٧)

وفى ١٩٥٤ كان أغلب الشيوعيين - قيادة وقواعد - فى السجون والمعتقلات، وكانوا يعانون من وطأة انقسامات وتشرذم، ويشتاقون إلى ما يوحدهم، ومن يوحدهم، وأقاموا فى سجن مصر ثم فى سجن القناطر (بعد انتقالهم إليه) لجنة للوحدة. ناقشت. حاورت، اتفقت. اختلفت. ثم توصلت إلى تفاهم عام، لكن ما قيمة أن يتفق السجناء، بينما الطلقاء على حالهم؟

لكن الحظ الحسن (وربما المصادفة بمنطق محمود العالم) جعل فى الخارج على رأس تنظيم «حدتو» شهدى عطية الشافعى، وعلى رأس تنظيم النواة محمود العالم، والتقى الشابان لعلهما تناقشا فى الفلسفة والثقافة بأكثر مما تناقشا فى الخلافات الصغيرة، وحملا على عاتقهما عبء التوحيد الفعلى.. وتنفيذ هذه الثقافات الحالمة التى تمت فى زنازين سجن القناطر.

وإذا كان شهدى قد فعلها متجاوبا مع إجماع تنظيمه (حدتو) فقد فعلها محمود العالم متحديا رأى قائد ومؤسس تنظيمه (النواة).. لكنه فعلها مسطرا لنفسه عملا إيجابيا، ودورا حاسما فيما بعد.

وتأسس الحزب الشيوعى المصرى الموحد. وتواصل توحيد الشيوعيين ولعب محمود العالم دورا مهما فى ذلك، واكتسى فى ذلك بمرونة عالية، وقدرة على إيجاد المشترك الذى يستحث الجميع على التوحد، وحقق فى ذلك ما أراد.

وأصبح واحدا من أبرز قادة الحزب الشيوعى المصرى، الذى لم يعد بحاجة إلى أن

يضيف إلى اسمه صفة الموحد أو المتحد، فقد أصبح الوحيد دونما حاجة إلى الوصف بذلك.

وفى هذه الأيام تغلب السياسى على كل ما عداه وانزوت الفلسفة لتفسح مجالا للسياسى المتقد حماسا وإن بقيت كل الكتابات والأفكار مغموسة بالعطر الفلسفى.

وكان المطلوب فى هذا الوقت (١٩٥٥ – ١٩٥٨ البحث عن صيغة يمكن أن توفق بين تأييد عبد الناصر الزعيم والقائد لمعركة العداء للاستعمار والصهيونية والرجعية، وبين التمسك بالمواقف المخالفة لرأى زعيم لا يعرف ولا يقبل الاختلاف، ونجح محمود العالم أكثر من غيره فى إيجاد صياغات متوازية لتوازنات كانت – على الأقل من الناحية النظرية – صعبة التحقق.

وفى هذه الأيام كانت "الناصرية" تندفع بكامل قواها باتجاه "القومية العربية" كفكرة وكسياسة وكمصير. وتوقف الماركسيون حائرين. فالماركسية تمتلك مفهوما محددا للقومية يقول بأن السوق الاقتصادية المشتركة هي الأساس فى دعوة القومية. ولا سوق عربية مشتركة. إذن لا قومية عربية.

ويتحتم البحث عن نقطة توازن.

فالشيوعيون يرون أمامهم جماهير عربية هائلة تندفع تحت رايات القومية. بينما أفكارهم تقف حاجزا بينهم وبينها. ويكلف المكتب السياسى للحزب الرفيق فريد (محمود العالم) بإعداد تقرير عن الموقف من القومية العربية. وكما اعتاد أيام الشباب تزامل مع عبد العظيم أنيس – (الرفيق سيد) فى إعداد تقرير حاولا أن يجدا فيه مخرجا.

١ – إن القومية العربية هى حصيلة تاريخ مشترك لجماعة من الناس عاشوا وتآلفوا وناضلوا معا مئات السنين.

٢ – القومية العربية لها لغتها الواحدة التى تحمل تراثها، وخلاصة خبراتها التاريخية.

٣ – القومية العربية تشترك فى رقعة واحدة من الأرض مهما اختلف وتعددت مظاهرها الجغرافية.

٤ – القومية العربية لا تشترك فى حياة اقتصادية واحدة (هنا يكون الجرح الماركسى موجعا) لكن هذه المشكلة ليست عائقا أمام وجود القومية العربية لأنه من الواضح أن هذه الحقيقة مرتبطة تماما بأن دولا استعمارية سيطرت على مقدرات وإمكانات وثروات أجزاء

من الوطن العربى. ولقد كانت السوق العربية المشتركة موجودة فى الماضى قبل الاحتلال الغربى بشكل أو بآخر، وعمل الاستعمار على تحطيم هذه السوق بوعى، والقضاء على تكامل الإنتاج فى الوطن العربى، ومع ذلك فأسس التكامل فى الإنتاج لا تزال قائمة، وإن متناثرة تقوم بينها الحدود المفتعلة. وفى محاولة للتغلب على رفض الفكرة القومية يواصل التقرير: "ومهما كانت الفوارق السطحية التى تبدو لنا هنا فى مصر مقنعة للبعض منا بأننا فى نهاية الأمر مختلفون نفسيا عن بقية العرب، إلا أن هذه النظرة ليست إلا بقايا الانعزالية فى مصر إزاء القومية العربية"، ثم محاولة أخرى للإغراء: "إن القومية العربية فى جوهرها حركة شعبية، وهى بالضرورة حركة تقدمية من الناحية الاجتماعية". (١٨)

وبرغم هذا الجهد من جانب الشيوعيين فى التوافق مع عبد الناصر.. إلا أن مبدأ الأختلاف لم يكن مقبولا خاصة أنه لمس الجرح الناصرى الحساس "الديمقراطية"، وبدأت نذر الصدام من جديد فى نهايات عام ١٩٥٨.

ولأن محمود العالم كان واحدا من أبرز القادة فقد جرت المحاولة الأخيرة للتطويع معه.

ودعى لمقابلة أنور السادات (نائب الرئيس والأمين العام للاتحاد القومى). ويتحدث العالم عن هذه المقابلة التى كانت فاصلة وحاسمة فى تاريخ العلاقة مع عبد الناصر. وتمت المقابلة من خلال د. يوسف إدريس، بينى ممثلا للمكتب السياسى للحزب، وبين أنور السادات فى منزله بالهرم فى أكتوبر ١٩٥٨، استمرت المقابلة من العاشرة مساء حتى الرابعة صباحا، وكانت جادة وجافة، دعا فيها أنور السادات إلى حل الحزب ودخول الاتحاد القومى كأفراد، وقلت له إننا على استعداد للتعاون بشكل تنظيمى داخل الاتحاد القومى محتفظين بمنبرنا المستقل.. وبعدها بيومين تم اعتقال عدد محدود من الرفاق فطلبت مقابلة السادات ولكنه لم يقابلنى». (١٩)

وفى أول إشراقات عام ١٩٥٩ يطرق الحديد الحديد، ويعتقل مئات ثم آلاف من الشيوعيين ويكون محمود أمين العالم معهم هذه المرة، وتكون محنة لا مجال للحديث عنها هنا تقبلها الشيوعيون صامدين.

لن نتحدث عن السجن والتعذيب والمحاكمات العسكرية فقط سنورد أبياتا من شعر قالها محمود العالم.

«ما أكثر ما سقط رفيق

ما ارتد رفيق
ما انسد طريق
ما اتقد حريق
وانطفأ بريق
والأغنية ما زالت تمضى، تصعد، تمتد
تبرق ترعد
فى قلب الليل الممتد."(٢٠)
ويمتد الليل حتى أبريل ١٩٦٤.

* * *

ولعله من الضرورى الآن.. أن نتوقف لنتحدث عن أمرين أساسيين يشكلان جزءا مهما من ملامح صورة السياسى.. فى محمود العالم:

- الموقف من التجربة السوفيتية.
- الموقف من التجربة الناصرية حال تحالفه معها.

وفيما يتعلق بالتجربة السوفيتية كان محمود العالم متمسكا بما كان الجميع يعتقد أنه الثوابت الثابتة التى لا تكون الماركسية دونها.

فيقول: إن الماركسية تؤكد منذ البداية أن الديمقراطية ليست مفهوما متعاليا. فليس ثمة ما يسمى بالديمقراطية المطلقة، أو بمجرد الديمقراطية. فكل ديمقراطية هى ديمقراطية طبقة من الطبقات أو مجموعة من الطبقات المتحالفة. وكل ديمقراطية هى بالضرورة ذات طابع مزدوج، إنها ديمقراطية لهذه الطبقة أو تلك الطبقات، وهى فى الوقت نفسه دكتاتورية ضد طبقة أو طبقات أخرى.(٢١)

هذا عن الديمقراطية، فماذا عن مسألة الحزب الواحد؟: «الحقيقة أن الحزب الواحد المسيطر فى الاتحاد السوفيتى لم يكن جوهر التطبيق الاشتراكى، ولم يكن اختيارا متعسفا من جانب البعض، بل كان ضرورة أملتها المواقف المعادية للأحزاب البرجوازية الصغيرة فى مواجهة الثورة السوفيتية. إن الثورة الاشتراكية تحتم الحزب الطليعى الذى يمثل الطبقة العاملة فكرا ومصلحة، والذى يقودها لتحقيق أهدافها».(٢٢)

ولعلنا نحن الماركسيين كنا نعجب أيما إعجاب به وهو يؤكد "إن إنسانا جديدا ينشأ فى

البلاد الاشتراكية لا على أخلاق الصدق والحب والأمانة والعمل والحرية وغيرها من القيم التقليدية فحسب، بل ينشأ كذلك على كراهية العدوان والاستغلال العنصرى والجنسى والطبقى، وينشأ على محبة السلام والمساواة والإخاء البشرى، إن مجال القيم الأخلاقية يتسع ويتعمق فى التجربة الاشتراكية." (٢٣).

ولعلنا أعجبنا بتبريره الأدبى الصنعة والصياغة لسور برلين إذ يقول : «أحسست به جدارا زجاجيا يحمى باقة من الزهور، يحمى الرابطة الإنسانية التى لفحنى شذاها"(٢٤).

وحتى عندما يلتقى بفتاة موسكوفية تقدم نفسها له قائلة: أنا مسافرة بلا حقائب أيديولوجية، أعيش فى هذا المجتمع دون أن أنخرط فى عقيدته.. وعندما تتهكم على هذا التعلق الصوفى الصارخ بلينين، يعلق هو قائلا: "لا أعرف، قد تكون هناك بعض مغالاة مظهرية فى الاحتفاء والاحتفال بلينين، على أن لينين ليس مجرد شخص، وإنما هو فكر."(٢٥)

ومحمود أمين العالم لم يستمتع فقط بمواقف كهذه، لكنه استمتع أيضا برفضه الحاد للمجتمع الرأسمالى، فعندما يزور أوروبا الغربية يقول: «وقد يغلب على هذه الرحلة إرادة الحكم والتقييم، بل والمحاكمة أحيانا، أكثر مما يغلب عليها الوصف المحايد والتلقى السلبى، بل أعترف صراحة أنها رحلة تتحرك من موقف ومن رؤية أعترف أنها تتميز بعدم الحياد، تتميز بالانحياز، وأنا أؤمن بأنه لا شىء محايدا. (٢٦)

لكنه لم ينظر أبدا للماركسية باعتبارها شيئا وافدا، "والماركسية ليست فكرا دخيلا علينا، أو مجرد زى عصرى مستورد للتباهى الفكرى أو المزايدة الثورية، إنها فى الحقيقة امتداد خلاق لأشرف ما فى تراثنا العربى الإسلامى من قيم علمية تجد إرهاصاتها الفكرية الأولى عند ابن خلدون وابن القيم وجابر بن حيان وابن رشد وعشرات غيرهم. كما تجد إرهاصاتها النضالية الأولى فى كثير من الحركات التقدمية الجماهيرية فى تاريخ أمتنا العربية، والماركسية كذلك هى خلاصة فكرية لنضال البشرية كلها من أجل الحرية والرخاء والسعادة". (٢٧)

ومن هنا كان تمسكه بالدفاع عنها تمسكا بالدفاع عن تراث عربى أصيل، وعن البشرية ككل.

وهو أيضا ينظر إليها – ومنذ الزمان القديم – نظرة عقلانية علمية "الماركسية ليست

وصفة جاهزة نهائية، بل هى منهج جدلى خلاق متجدد ملتحم بحركة الجماهير البشرية فى واقعها العام والخاص، فى واقعها الاجتماعى والطبيعى."[٢٨]

وهو أبدا لم يخدع نفسه أو يخدعنا إزاء واقع الماركسيين العرب.. فيقرر "لست أنكر أن الماركسية فى التطبيق العربى خلال سنوات طويلة قد تورطت فى كثير من الأخطاء، ولعل المصدر الرئيسى لهذه الأخطاء هو استخدامها كقوالب جامدة، جاهزة، ونقل بعض خبراتها التطبيقية نقلا آليا، خروجا عن حقيقتها كمنهج للدراسة العينية المحددة، للواقع العينى المحدد، واستلهام هذه الدراسة واختبارها وتنميتها بالنضال الجماهيرى ثم.. والغريب أنه برغم الرحلة الطويلة التى قطعتها الماركسية فى حياة تاريخنا العربى الحديث لا نكاد نجد دراسة ماركسية شاملة معمقة لواقعنا الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى أو الثقافى. ما أكثر التحليلات المرحلية التى تتخذ طابع الاستراتيجية البعيدة دون سند من تحليل علمى تفصيلى دقيق شامل، وما أكثر ما يطغى على كثير من التحليلات الماركسية طابع التأمل التجريدى، لا طابع الدراسة العينية الدقيقة. بل ما أكثر من استلهموا بعض نصوص أو فصول من الماركسية ليجعلوا منها تكئة لسلوك مغامر أو فوضوى، ولعلى أشير بهذا بوجه خاص إلى بعض قادة فصائل المقاومة الفلسطينية وبعض مفكريها وكتابها."[٢٩]

فقط نتذكر أن هذه الكلمات كتبت عام ١٩٧٢.

لكن محمود العالم لم يكن راضيا عما يجرى، بل لعله كان يستشعر الزلزال قبل أن يقع بزمن طويل.

ولنقرأ معا بعض أسطر من هذا التنبؤ الحزين الذى سبقنا إليه جميعا.. فى عام ١٩٦٥ «لا شىء أصلى من أجله مثلما أتطلع وأصلى لروح الثورة روح الثورة فى الإنسان، روح الثورة فى العصر، روح الثورة فى العالم أجمع.

إن رايات الحق والفضيلة والتقدم تكاد تتمزق حزينة بين الأيدى الصديقة، قبل أن تتمزق بين الأيدى الباغضة الكارهة.

إن روح الثورة فى الأدب، فى الفن، فى الفكر، فى الحياة كلها تتلوى تحت رماد متراكم. لا أقول إن روح الثورة فى العالم تحتضر، ولكن أحس أن روح الثورة فى العالم مشتتة، مفتتة، ضائعة، حزينة».

ثم يمضى ليعزف على ذات الوتر الحزين "أغلب ما تقرأ من كتب. أكثر من تقابل من أصدقاء،

من هذا الركن القصى فى العالم، أو هذا الركن القريب، تطل منهم روح الانتظار، والترقب، والغربة، إن لم تطل منهم روح اليأس من الثورة، روح العكوف على العابر الجزئى من اهتمامات الحياة اليومية". وقد تحققت الأحلام ولكنها عندما تحققت اصطبغت بلون التراب الداكن، ولم يعد أصحابها يتحدثون بلغة الحلم والبطولة، وإنما بلغة الأرقام والتجارة، بل اختلف الحالمون الثوار وشهروا الأسلحة فى وجه بعضهم البعض.. واحسرتاه".(٣٠)

ثم نأتى إلى تجربته مع النظام الناصرى.

الإفراج، حل الحزب، الانضمام الجماعى أو شبه الجماعى للاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى. كانت هذه جميعا سمات مشتركة بين الجميع تقريبا. لكن محمود العالم وصل إلى قمة التنظيم الطليعى الذى كان واحدا من أهم أدوات الحكم.. فيما تسرب الآخرون مللا، أو أبعدوا استثقالا لظلهم، أو استخفافا بشأنهم.

ومن هنا تكون تجربة محمود العالم فى التحالف مع الناصريين تجربة فردية أو انفرادية. ولقد جر عليه ذلك كثيرا من الملاحظات وربما التقولات، لكن ما كان يحميه أنه كان متسقا بل ومنفذا للخط العام الذى اختطته الحركة الشيوعية لنفسها فى ذلك الحين، وأن صعوده يعتبر تميزا.. وليس تحيزا للناصرية.

لكن محمود العالم الخارج لتوه من سجن طويل، كان ككل الشيوعيين منبهرا بما يجرى حوله. فعبد الناصر فى قمة الصعود السياسى والجماهيرى، والميثاق الوطنى اعتبر من جانب الكثيرين وثيقة تقدمية تنحاز إلى الاشتراكية العلمية.

ويجسد محمود العالم انبهاره متحدثا عن الميثاق "بهذا المعنى يصبح الميثاق ظاهرة تاريخية جديدة، هى حصيلة الواقع الثورى العربى، وخلاصة خبراته الناضجة ثم.."إننا نجد فيه تحليلا علميا رصينا للثورة العربية، والعوامل المتصارعة داخلها، واستخلاصا للدروس الموضوعية من نكساتها وانتصاراتها، ثم نجد ارتفاعا بمفهومها للديمقراطية إلى مستوى جديد من الواقعية والموضوعية يخلصها من الضباب الليبرالى الشكلى، ويجعلها تعبيرا صادقا عن الواقع الاجتماعى، وأداة فى يد الجماهير الشعبية من أجل السيطرة على هذا الواقع وتوجيهه لمصلحتها" ثم.." وأكاد أقول إن الميثاق تاريخ جديد للحياة، وتاريخ جديد للفكرة فى بلادنا، بل فى الوطن العربى كله".(٣١)

بل هو يقول إن "الديمقراطية فى الميثاق ليست واجهات دستورية فارغة وإنما هى حركة

موضوعية تاريخية للجماهير تؤكد سيادتها، وتضع السلطة كلها فى يدها، وتكرسها لتحقيق أهدافها، إنها ديمقراطية اجتماعية سياسية، وديمقراطية فكرية كذلك».(٣٢).

إن ما رفض عام ١٩٥٨ وكان سببا للسجن الطويل يقبل الآن، وتقبل معه حتى فكرة الحزب الواحد.. فالتعددية الحزبية التى يأخذ بها المجتمع الرأسمالى عند العالم فى فكره الجديد "قد لا تصلح تعبيرا عن الحرية فى مجتمع اشتراكى، ذابت فيه الطبقات إلى شعب عامل موحد الإرادة والمصلحة أو فى طريقه إلى هذا. بل قد تكون هذه الدعوة دعوة الثورة المضادة، دعوة مناقضة للحرية". (٣٣)

ولعل من حق محمود العالم علينا أن نقرر أن هذه القناعات كانت قناعات المناخ العام للماركسيين المصريين لكنه مثل عدد قليل من القادة كتب فاكتسب القدرة على أن يضع أفكاره على محك الانتقاد عندما آن أوانه.

لكن حماس محمود العالم للتجربة الناصرية دفعه للتصادم مع بعض أصدقاء الأمس. فكانت واقعة "الفتى مهران" وعبد الرحمن الشرقاوى. فإذ كانت المسرحية تتألق على خشبة المسرح، وجه محمود العالم نقدا لاذعا للإيحاءات والرمز. فالمسرحية تنتقد وبشدة إرسال قوات مصرية لليمن.. وتنتقد أيضا من قرروا حل الحزب والانضمام للاتحاد الاشتراكى رغم أن الشرقاوى نفسه كان قد انسحب من أى عمل ماركسى أثناء وجود رفاقه فى السجون.. وانضم هو نفسه للاتحاد الاشتراكى.

ويتوقف تحديدا أمام الانتقاد لحل مجموعات الفتوة (أى الحزب). والانضمام إلى الحاكم. فيشعر وكأن الكلمات موجهة ضده وضد رفاقه فيكتب: "إن المسرحية تغمز وتلمز بهؤلاء الذين يصفون جماعات الفتوة ليندمجوا مع جيش الأمير، والمسرحية بهذا توحى بعض الإحاءات التى تبذر بذور التشكك والريبة فى اللقاء الثورى الذى يتم فى بلادنا بين مختلف القوى الاجتماعية المؤمنة بالتقدم والاشتراكية. وهو لقاء ثورى جاد تحت راية المبادئ لا يفضى إلى تصفية للثوار، بل إلى توحيد لحركة الثورة كلها".(٣٤)

وعندما يحتج عليه الكثير من رفاق الأمس، ليس لأن فهمه للرمز كان خاطئا، وإنما لأن الرمز يأتى فى ظل بطش بأى خصوم، ولأن جهاز الحكم لا يغفر ولا يتقبل الغفران، الأمر الذى أفزع الشرقاوى فزعا منحه تعاطف الكثيرين، فإنه يرد عليهم بمقال حاسم عنوانه "الصدق فوق الصداقات" ويسأل ويجيب:

"هل ندمت على ما كتبت.. لا

هل أدركت خطأ فيما قلت.. لا." (٣٥)

لكنه هو نفسه يشعر بالمأزق. فهو فى قمة التنظيم الطليعى. وهو يتولى مسئوليات مهمة، ومع ذلك لا يستطيع أن يقول ما يريد، أو حتى بعض ما يريد فهو إذ يكتب مقالا ينتقد فيه وبشدة الاتحاد الاشتراكى تصادره «أخبار اليوم» رغم موقعه المهم.. فيلجأ إلى الشعر.. ليقول رمزا بعضا مما يؤرق ضميره الثورى:

"أشعر أن جدار الصمت بقلبى ينهار

لكن لا أعرف كيف أقول

يا قلبى البائس لا تحفل

يا قلبى العانس لا تجفل

لا تأبه بهموم الشمس

همك أكبر

خض وتفجر

وتجبر

لا تأبه بالنجم اللماح خذلتك نجومك يا ملاح

سر وارفع رايتك السوداء

وارفع مجدافك للأنواء

قد أصبح ملاحك قرصان

افتقد النجمة والشطآن". (٣٦)

ترى من هو القرصان هنا؟

وهو يعزى نفسه أو يعذبها. إذ يصب الغضب الغاضب على الشعارات الرنانة المتعالية فى الزمن الناصرى..

«يا ويلى من تعبير يتعالى

لكن لا يحسن أن يتجسد أفعالا

لا يمكن أن يمسح فى الليل دموعا

لا يملك أن يطعم طفلا يتضور جوعا

لا يملك ان يرفع رأسا يتمرغ فى الأوحال
لا يملك أن ينسج رغبة
فردوس محبة
للمشتاقين، المحرومين، المقهورين
لا يملك أن يملك
لا يملك أن يتحرك ويحرك".(٣٧)

وهو يستشعر الغربة وسط هؤلاء الغرباء، ويحن حنينا موجعا لحزبه القديم ورفاقه القدامى:

"لكن يا ملكوت الصمت
لا أملك أن أركب للشمس
لا أملك أن أركب
أنا أمشى فى ملكوتك وحدى
أتمنى.. أتأمل
أحلم.. أتكلم
لكنى لا أملك
ذلك أنى وحدى".

* * *

ويأتى ١٥ مايو بما حمله من تداعيات ويكتب: "إن الأنظمة التقدمية العربية لم تعد تلهم الوجدان العربى – كما كانت تلهم من قبل – نموذجا جيدا جديدا لمجتمع عربى، لقد خفت بريق التطبيقات الاشتراكية سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية، أو الناحية الديمقراطية، فلم تستطع حتى اليوم أن تقود معركة التحرير الوطنى للأرض العربية المحتلة قيادة متصاعدة مظفرة، وأن تواجه الاحتلال الإسرائيلى بحماس واقتدار، لم تستطع أن تحقق تنمية اقتصادية حقيقية تقيم بها أساسا للتغيير الاقتصادى الجذرى، وتقضى بها على التخلف الاجتماعى، ولم تستطع أن تحقق تنمية ديمقراطية تتيح للجماهير مشاركة إيجابية فعالة فى التغيير والتنوير الاجتماعى" (٣٨). لكن نصيبه من ١٥ مايو يكون شديد القسوة، يسجن، يحاكم بتهمة الخيانة لعظمى، يفصل من عمله، لكنه يواصل.. ينطلق

إلى باريس لتتواصل معارك الدفاع عن الديمقراطية، وعروبة مصر.

ومع انحدار التجربة الساداتية يتجدد شباب الفيلسوف، وتعود أزهار الثورى للتفتح.

وينطلق محمود أمين العالم من جديد.. وكأنه لم يزل بعد شابا ليخوض تجربة الثورة المتجددة.. والفعل الثورى المتجدد. ويصبح رئيساً للجنة الفلسفة فى المجلس الأعلى للثقافة، لكنه لم يخضع لأقاليم الفلسفة وحدها ويواصل معاركه السياسية.. حتى يرحل.